الفصل الثالث

جوانب المتنبي

١ ــ شعره

ا ــ الموهبة والصياغة فى هذا الشعر

الطبع والإلهام أساس الشاعرية ، وقد كان المتنبي شاعراً مطبوعاً نطق بالشعر وتأتى له وهو غلام ، وفى ديوانه قصائد قالها فى صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة . وكان لحياته الأولى فى البادية وبين الأعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب ، أثر راسخ فى موهبته وطبعه ، حتى إن مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده ، لقد مزج روحه بالبداوة وعمق إحساسه فيها فقال :

كم زورة لك فى الأعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

وعرف أسرار الجمال فيها فقال :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدَويات الرعابيب
حسن الحضارَة مجلوبٌ بتطرية وفى البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

وصور ممارسته للبادية مقيماً ومرتحلاً فى هذا البيت :

أواناً فى بيوت البدْو رَحلى وآونةً على قتد البعير[1]

وفى أرجائها امتد خياله وعلقت بذهنه بقاعها وفلواتها ، وجرت على لسانه لغتها فى تصوير سلاحها وخيلها وإبلها وكأنه واحد من أهلها ، حتى بعد تجواله فى البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الحضر والترف . لقد رفد هذه الفطرة

(١) الرحل : كل ما يستصحب الراحل من أثاث ونحوه . والآونة : جمع أوان . والقتد : خشب الرحل . يصف طول ارتحاله وكثرة تردده فى البوادى . وأفرد الأوان فى الأول وجمعه فى الثانى إشارة إلى أن ارتحاله كان أكثر من نزوله .

والسليقة بمعرفة واسعة فى كلام العرب وإدراك لخفايا اللغة وسحر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع ، فيه الأصالة والجزالة ، وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية .

وكان مردّ المتانة فى الشعر العربى وإحكام صوغه إلى الشعر الجاهلى ، وحين تحدر هذا الميراث إلى العصر الأموى فبدا فى الشعر الجذل دخل عليه التطور حتى جاء عهد العباسيين والأندلسيين ، فطبع بطوابع التجديد ، وجاء عصرنا فأعاد إليه رونقه السابق وخلصه مما علق به فى عهود التخلف ، ناظراً إلى أبى الطيب وكأنه نبراس لا ينطفئ لإحياء الشعر العربى على مدى الزمن .

ولا يعيب أبا الطيب ما جاء فى بعض شعره – مما تتبعه عليه الثعالبى فى اليتيمة – والجرجانى فى الوساطة ، فإن للبلاغيين آفات تلازم أعمارهم ؛ وكان هذان يعجبان به لكن هنالك فئة من الباحثين عن عيوبه ظهروا بروح حساد أكثر مما تناولوه بتسامح العلماء ، على أن هذا الشعر لم يسلم من الشوائب ، وأى شاعر خلا قصيده من خطأ أو زلل .

ب – ألوانه

كان شعر أبى الطيب المتنبى صورة صادقة لعصره ومرآة للحوادث والمحن فى أيامه ، وما من شك أن السياسة والعروبة المتأصلة فى فؤاده والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه ومذهبه وخلجات نفسه . فهو يقول فى واحد من أدعياء العلويين حين مدح الأمير أبا محمد الحسين بن طغج بالرملة :

وفارقت شرّ الأرض أهلاً وتربةً بها علوىّ جــدّه غيرُ هاشم

ولقد طرح فى شعره صوراً لكل ما كابده فى حياته وهذه الصور كان يأتى بها خلال قصائده موزعة حسبما تدعو إليها المعانى والخواطر التى كان يسوقها .

رأى ما كانت عليه السياسة فى زمنه من تحكم ملوك العجم وأمرائهم بخليفة المسلمين وملوك العرب ، وعاين هوان الأمة العربية يومذاك بما أصابها من الترك والعجم والزنج فنفس فى شعره عن سخطه المكبوت .

وكان المتنبى يحسّ فى نفسه حافزاً قوياًّ لاستعادة الأمجاد العربية ، وقد

شاعت فى شعره — حيثما قاله — نزعة إلى العروبة وبعثها وتعميمها . فكان يصف الكرماء وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية ، وفضل السيوف العربية على السيوف الهندية بمثل قوله :

تُهابُ سيوف الهند وهى حدائدٌ فكيف إذا كانت نزاريةً عرْبا

كما كان يذمّ العجم وينال منهم فى مثل قوله :

أفعالُ من تلد الكرام كريمةٌ وفعالُ من تلد الأعاجم أعجمُ

وكان المتنبى أكثر شعراء عصره حماسةً للقومية العربية وإحياءً لها ، بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك . إذ وَقرَ فى عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب وتأليبهم على العجم فى حرب عاصفة يكون هو قائدها ، وقد كشف عن عزيمته هذه حين قال أبياتاً يخاطب بها أبا عبد الله معاذ اللاذقى يوم نزل عنده باللاذقية سنة ٣٢٦ للهجرة وهو فى صدر عمره متوقد النخوة والهمة[١] يصف فيها مطلبه الجسيم وما هو قادم عليه من المغامرة والخطر ، وكان إنذار المتنبى بثورته العربية بادياً فى هياجه النفسى الذى عبر عنه بقوله المتوعد :

لأترُكن وُجوهَ الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساق على قدم
تنسى البلادَ بروقَ الجو بارقتى وتكتفى بالدّم الجارى عن الديم[٢]
ميعادُ كلّ رقيق الشفرتين[٣] غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وقد عاين أبو الطيب الحالة الاجتماعية فى الأمراء والعبيد فقال متهكماً — ولعل ذلك لما قساه من كافور :

فلا ترجّ الخير عند امرئ مرّتْ يد النخاس فى رأسه[٤]

وحين هجا كافوراً راح يقول بأسلوب التهكم اللاذع ، فضلا عن الهجاء :

---

(١) راجع قسم المنتخبات من هذا الكتاب فقد أثبتنا فيه من شعر المتنبى طائفة تدل على توثبه وثورته .

(٢) الديم : المطر مفرده ديمة .

(٣) رقيق الشفرتين : السيف ذو الحدين .

(٤) النخاس : بائع الدواب لأنه ينخسها لتنشط ويطلق على بائع الرقيق .

العبد ليسَ لُحرٍّ صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحرّ مولودُ
لا تشترِ العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ
من علمَ الأسودَ المخصيّ مكرمةً ... أقومه البيض أم آباؤه الصيدُ
أم أذنه فى يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردودُ[1]

ولقد تعددت نواحى العبقرية فى شعر المتنبى وتجلت فيه طوابع الحكمة والتجربة يقولها فى كل شعره ، وأشبهها بواحات الفكر والخاطر يقف عندها مستريحاً ، وكانت ثقافته المتعددة وجولاته فى البلاد سبيلاً إلى تعدد ألوان شعره ، فمن غرر ألوانه فى الحكمة والعبرة هذه الأبيات :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظره ... إذا استوتْ عندهُ الأنوارُ والظلمُ[2]
خذ ما تراه ودَع شيئاً سمعت به ... فى طلعة البدر ما يغنيكَ عن زُحل
لعل عتبك محمودٌ عواقبهُ ... وربما صحت الأجسامُ بالعلل
وإذا الشيخ قال أف فما ... حياةً وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشبابٌ ... فإذا ولّيا عن المرء ولّى
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه ... فما طلبى منها حبيباً تردّهُ
ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن
غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ولا يلاقى الهوانا
وأتعب من ناداك من لا تجيبه ... وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
فلا تطمعنْ من حاسد بمودة ... وإن كنت تبديها له وتنيلُ

ومن ألوان شعره التى انتهت إليها الجودة والبراعة شعر الحرب[3] ، فلقد بلغ به شأواً يناصى به هوميروس فى ملحمة « الإلياذة » . ولو جمع شعره فى وصف الحرب والمعارك فى تتابع واحد وأعطى العرض والتحليل لكان فى ذلك بعض الوفاء لشاعر أعطى العربية روحه ودمه ، فقد وصف الخيل وصفاً يبذ فيه ما قاله

---

(١) اطلب القصيدة فى قسم النماذج .
(٢) انظر طائفة من حكمه فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٣) للدكتور زكى المحاسنى كتابه الكبير (شعر الحرب فى أدب العرب) طبع دار المعارف بالقاهرة .

الأوائل من تصوير شياتها وحركاتها ، وصهيلها وأعراقها ، وتسلل بنفسه إلى الوقائع الحربية مع البيزنطيين فكان شعره بوق الحرب الذى نام سيف الدولة فى قبره على هدير صوته ، فمن هذا الشعر الرائع وصفه وقعة « الحدث الحمراء »[١] سنة ٣٤٣ هـ :

هل الحدث الحمـــراء تعرف لونها ... وتعلمُ أى الساقيـــين الغمائمُ
بناها فأعلى والقنا تقرع القنـــا ... وموج المنايا حولها متـــلاطمُ
خميس بشرق الأرض والغرب زحفهُ ... وفى أذن الجوزاء منه زمازمُ[٢]

ومن ألوانه المديح الذى ضمن له مكاسب عمره وتسابق إلى الحصول عليه الملوك والأمراء لأنه يصور ممدوحه فى شعره صورة يضمن لها البقاء ، وهو الشاعر الذى يكاد يكون وحيداً فى الشعراء المادحين بطريقته ، إذ يضع نفسه فى منزلة الممدوح فيتكلم على الصفات التى يعجب بها من فطانة وكرم وشجاعة ، ويتناول ممدوحه بمثل هذه السجايا .

وهذا ضرب من السمو لم نشهده عند المداحين الذين كانوا يتواضعون ويخنعون أمام الرؤساء والملوك . ومن مزايا المديح عند أبى الطيب قدرته على إبراز ممدوحه بصفات تلزمه فهو يعمد كالمصور البارع إلى الخطوط المؤسسة لشخصيته ثم يقيم عليها قطعته الفنية ، ومن هنا برزت أصالة المدح عنده .

مدح سيف الدولة يوماً وقد أهدى إليه سيفاً — وأماديحه فيه هى المجموعة الكبرى من شعره الذى اختص به صاحب حلب ، فهو يقول فيه :

معطى الكواعب والجرْد السلاهب والـ ... بيض القواضيب والعسالة الذبل[٣]
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ... ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن فى جذل والروم فى وَجل ... والبرُّ فى شغل والبحرُ فى خجل[٤]

---

(١) الحدث فى Edessa مدينة على الحدود البزنطية « الثغور » سميت بالحمراء فى شعر المتنبى إما لترابها الأحمر أو للدم الذى سفك حولها ، وكانت بيد العرب فهدم سورها الروم لكن سيف الدولة أمر بإقامته وإعادته والمعركة دائرة .

(٢) الخميس القطعة من الجيش تقسم أخماساً — وهذه القصيدة فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب.

(٣) هو الذى يعطى من يجود عليهم الجوارى الشابات والخيول الطوال والسيوف المواضى والرماح اللدنة اللينة .

(٤) الجذل : الفرح .

ليت المدائح تستوفى مناقبـــه فما كليبٌ وأهلُ الأعصرِ الأوَل ؟
جاز الدروبَ إلى ما خلْف خرشنة وزال عنها وذاك الرَّوْع لم يزُل[1]

حتى يقول له على عادته فى المديح فى مساواة نفسه بالممدوح :

ناديتُ مجدَكَ فى شعرى وقد صَدَرا يا غير منتَحِل فى غير منْتَحل[2]

ومن ألوانه الرثاء : فقد برع فيه ، وأجلُّ مرثيتين قالهما فى حياته الشعرية — وهما يعدلان الكثير مما قاله الشعراء فى الحزن والتفجع — مرثيته لجدته والثانية لخولة أخت سيف الدولة التى توفيت بعد سبع سنين من تركه لحلب وقد شفّت الثنتان عن عاطفة بالغة وحنين وصدق . فمن قوله فى الأولى[3] :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصْما
أحنّ إلى الكأس التى شربتْ بها وأهْوى لمثواها الترابَ وما ضمّا
حرامٌ على قلبى السرور فإنـــنى أعدّ الذى ماتت به بعدها سُمّا

ويتجلى فى رثائه الحزن العميق والشعور الصادق المتدفق ، وهو لا يقصره على تعداد المزايا فى المَرْثى وإنما يثير حوادث وذكريات فيعيش فى نطاق من حزنه الحى ويسلسل الحوادث حتى تبدو فى شعره نزّاعة إلى أسلوب القصة فلا يكون القارئ والسامع غريباً عن أفقها . وإنما هو ينسجم ليعيش فيها مع الشاعر ، وهذا منتهى البراعة فى التجاوب والتأثير .

أما لون الهجاء الذى عنده فهو كما يقول الغربيون فى أدبهم يتخذ شكل (ساتير)[4] بل هو حرب عاصفية ينزلها أبو الطيب على من كادوا له وخيبوا

---

(١) خرشة مدينة بيزنطية حصينة على الصخور واسمها بالرومية Carchianose .

(٢) المنتحل المدعى زوراً وباطلا ويريد دعوت بشعرى مجدك فاصطحبا وفيين وسارا فى الآفاق وهذا النداء هو (يا غير منتحل فى غير منتحل) أى يا أصيل العرق فى الكرم والقوة يمدحك شعر أصيل القول فى القوة والصدق مثلك .

(٣) المرثيتان فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٤) Satyre : إله من الأساطير اليونانية من الطبقة الثانية ، ويمثلونه بإنسان ذى وجه وحشى له أذنان طويلتان ولحية ثائرة ورجلاه رجل وعَل وهو فى الآداب الأوربية يمثل الهجاء والملاذع .

أمله ؛ وهو لا يكون فى أهاجيه إلا منتقماً أو مدافعاً عن نفسه ، لقد هجا جماعة فى الشام وهجا كافوراً الإخشيدى أمرَّ هجاء ولو نهض اليوم من رمامه لأشفق مما ترك لهم من أوصاف السوء ترويها العصور وترددها الأجيال[١] .

وأما الوصف والغزل ، فإن فى القصائد التى قالها أبو الطيب فى الرثاء والهجاء وفى المدح والفخر صوراً رائعة وصف فيها كل ما مرّت بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال الذى شهده مع سيف الدولة ، وكان هو يصف الخيل والفرسان بشعره ، وكأنه مصور أمام لوح يودعه الخطوط المعبرة والألوان الناطقة ، ولم يترك منظراً من مناظر الفوز والهزيمة إلا صوره ، كما انطبع فى باله وخالط إحساسه ، وكانت ألفاظه الجزلة تحمل كثيراً من المعانى والأفكار فيؤدى بها ما يريد من تصوير شعوره بالحياة ورأيه فيها ، وهو حين صور صراع ابن عمار للأسد أتى بتهاويل وتبديع [٢] وحين وصف شعب بوّان وهو بساتين بفارس نزلها كان رساماً ماهراً للطبيعة ، ومن فنه فى الوصف أنه يعطى الأشياء روحاً وحركة ، وهو الذى أدرك جمال السكون وجمال الحركة ، ولعله اطلع على فلسفة زينون الإيليائى [٣] فأخضعها للشعر حسبما تمثلها وراح يصف حسناء قال فيها :

« تناهى سكونُ الحُسنِ فى حركاتها »

وجرى أبو الطيب على عادة الشعراء فى الغزل فكان يستهل أبياته متغزلا ثم ينساب مع طبعه وشعوره فيقول المعانى التى يريدها ، وأكثر ما بدا غزله رقيقاً شفافاً حين كان فى حمى سيف الدولة وبعد أن فارقه آسفاً حزيناً .

لم يكن المتنبى شاعراً غزلاً أرْصَدَ شعره للحب والغرام لكنه على عنفه وغلبة عقله كان ألوفاً يستجيب لدواعى الهوى والعاطفة .

---

(١) انظر مختارات من الأهاجى ، فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٢) اطلب القصيدة فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٣) زينون الإيليائى : فيلسوف يونانى ولد بين ٤٩٠ و ٤٨٥ ق . م . اشتهر بنظرية استحالة الحركة ومن ثم استحالة التعدد اعتماداً على أن تجزئة الزمن والفضاء إلى ما لا نهاية له يجعل الحركة مستحيلة . ومن الأمثلة التى ضربها لذلك مثل : « أشيل والسلحفاة » ومثل : « السهم الطائر » فزعم أن أشيل لن يستطيع إدراك السلحفاة مهما كانت المسافة قصيرة بينهما وأن السهم الطائر غير متحرك لأننا نجده فى كل لحظة فى نقطة محددة وهذا معناه أنه ساكن غير متحرك .

ولقد كشفت أماديحه لأمير حلب عن عشق لأخته « خولة » طواه فى فؤاده طويلاً لكنه فى شعره لم يستطع أن يخفيه فقد تملك حسه وسرى فى أبياته أنيناً وشكوى ، فلما ماتت المحبوبة التى تعلقها: دل رثاؤه إياها ، على لوعة لم تكن فى غير الهائمين المعاميد .

فالمتنبي عرف العشق وأقرّ به فى شعره وردد من ألفاظه ما أكد هواه ، فغزله إذن تعبير صادق ولم يكن تكلفاً وتقليداً .

حـ — المآخذ عليه

بعد أن أورد العكبرى — وهو من أفاضل الذين شرحوا ديوان أبى الطيب — قدراً كبيراً من الأبيات المتفرقة المختارة له قال :

« فهذا الذى لم يأت شاعر بمثله ، وإنما ذكرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولّدين والمحدَثين لم تجد لأحد منهم بعض هذا إلا نادراً ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ويؤتى الحكمة من يشاء » [1] .

وكأن العكبرى ترك للناس أن يبحثوا فى ديوان أبى الطيب عن الشعر الذى يؤاخذ بأخطائه وما ند فيه من معنى . أفلم يقل فى صباه ؟ :

بانوا بخرعوبة لها كفلٌ يكادُ عند القيام يقعدها
ربَحلَةَ أسمرٍ مقبّلُها سبَحلَة أبيضٌ مجرَّدُها [2]

لكنه فى هذه القصيدة التى جاء فيها بهذا الغريب الموحش كان يقول :

يا عاذل العاشقين دَعْ فئةً أضلّها الله كيف ترشدها

وجدّ المتنبي وراء القافات الثقيلة وكان يجد فيها صدى حياته المجلجلة فهو يقول :

شرف ينطح النجوم بقرنيـ ـه وعز يقلقل الأجبالا

---

(١) العكبرى ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) الخرعوبة : فى البيت الأول الشابة اللينة ، والربحلة : الجسيمة . والسبحلة : الطويلة .

وهذا البيت يذكرنا بقوله المعروف الذى استدارت عليه حلقات البلاغيين فى نقدهم إياه وهو :

فقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشى قلاقلَ عيس كلهن قلاقلُ

ومن المستكره المأخوذ عليه من التكرار وسوء التركيب قوله :

مبيتى من دمشق على فراش حشاه لى بحرّ حشايَ حاشِ

وأكثر النقاد القدامى من المآخذ الشكلية على أبى الطيب وأرّقوا أعينهم كثيراً فى حل معانيه فاتّهموه بالسرقة والاقتباس وقد تبينوا أرواحاً من هذه المعانى حائرة فى شعر الأقدمين وقد يتفق أن يكون شاعر قبله أو عاصره قال بيتاً فيه ذلك المعنى كقول شاعر متقدم :

يا مَحَلّ الآرام والعِين أهلاً لك فى القلب منزلٌ ومَحَلّ

فكان من قول المتنبى :

لك يا منازلُ فى القلوب منازلُ أقفرت أنت وهن منك أواهلُ

وإذا قال أبو العتاهية :

وإذا الجبانُ رأى الأسنة شُرَّعاً عاف الثبات فإن تفرَّدَ أقدما

فكان من قول المتنبى :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلبَ الطعن وَحدهُ والنزالا

وتَتبَّع غير هذه الشواهد صاحب اليتيمة فى فصل: (صَدْر من سرقاته)[1]، كما أورد الجرجانى فى الوساطة طوائف من هذا القبيل لأبى الطيب ولن تقدمه كأبى تمام الذى يحصى له الكثير مما سمّوْه سرقات .

أما المآخذ التى أصابت المتنبى من المعاصرين فى القرن العشرين — وهؤلاء تتبعوا هفواته ونبَواته ودلوا من وجهة نظرهم على عيوبه — فمن أجلّ ما رأيت من

(١) الصفحة ٩٥ .

آثارهم مقالٌ لطبيب العظام الأديب الباقعة الدكتور محمد كامل حسين[1] هاجم فيه أبا الطيب هجوماً لم يعرفه الشاعر من قبل - إذ لم يكن برهانه مبنيًّا على الأساليب القديمة فى تجريح أبى الطيب وبيان أخطائه ، وإنما اتخذ فيه أدوات حديثة من معامل التحليل النفسى . فقد عرض هذا الطبيب الأديب أطرافاً من حياة المتنبى فى معرض من علم التحليل النفسى ، فعلل تعقيده وغموضه لبعض شعره بأنه أثر من آثار حالته النفسية فى الانهزام وضيعة الأمل أو أن المتنبى قليل النصيب من الخيال لاعتماده على العقل ، وأنه ضئيل العدة من التشابيه الحسية لسيطرة العقل عليه أيضاً ، وقد أحدث هذا المقال هزة فى أوساط الأدب المعاصر لما فيه من التحقيق الجديد المبنى على العلم والتحليل .

أما عميد الأدب الدكتور طه حسين فهو بعد أن ألف فى المتنبى كتابيه اللذين سماهما « مع المتنبى » لا يزال يتسقط زلاته ولا يعده الشاعر المُجْدى الذى يستحق كل هذه العناية من الأقدمين والمعاصرين . وهذه الآراء المتضاربة التى ما زالت تقال فى أبى الطيب كلما عرض متتبع لشعره وأخباره بالتمحيص والتعليل تدل على عبقرية ودعوة تجلتا فى شعره ورحلاته . وستبقى كل منها موضع البحث والرأى فى الدراسة الحديثة ، كما أن العناية الدائمة بالمتنبى سواء أكانت من المستشرقين أم من أدباء العربية تردنا إلى ما يتردد فى أمانى الجيل وما يجول فى خواطر القائمين فى بعث العروبة التى حمل لواءها هذا الشاعر الخالد داعياً إلى حكم عربى سليم ، ومن أجل هذه الدعوة لقى الملوك والرؤساء وكابد الويل والنكد ، ولولا تعاظمه ومطامعه ، وحرصه على المال لحقق كثيراً من الأمل لكنه سامَ نفسه طلب المحال ...

---

(١) انظر المقال فى مجلة الكاتب المصرى لشهر نوفمبر ١٩٤٥ وردت الكاتبة العربية وداد سكاكينى عليه فى عدد ديسمبر من العام نفسه حين قالت له : لو تقدم بك الزمن يا طبيب العظام المشهور ، أو تأخر بالمتنبى حتى التقيتما لخففت إليه تداويه بأرض مصر حين قال فيها وقد نزلت فى جسمه حمى البرداء :

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

بديلا من نقدك إياه وتحطيمك له بتحليلك لنفسه ! . . .

ثم توسع العالم الأديب فى موضوعه وعدل فيه حين نشره بكتاب « متنوعات » طبع بمطبعة مصر سنة ١٩٥٤ ص ٤٤ .

د — شرّاحه فى الشرق والغرب

لقد اتفق لأبى الطيب من العناية بشعره ما لم يتفق لشاعر عربى قبله ، فكانت تعقد بمصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هذه الحلقة تحت إرشاده[١] . وفى حلب لم تخل مجالس الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته ،وكان اسم المتنبى دوماً مقروناً باسم سيف الدولة ، وفى شيراز حيث عاش عضد الدولة زمناً كان شعر أبى الطيب موضوع بحث ودراسة واستشهاد ، حتى انتقل إلى بغداد وفيها تغلغل اللمز للشاعر وديوانه حيًّا وميتاً .

ولم يُتح لشاعر عربى من النقد والتحليل لآثاره فى القديم والحديث ما أتيح لأبى الطيب ، وكان له فى القدامى محبون وخصوم ، وكذلك فى المحدثين من المعنيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره .

تتبع الحاتمى البغدادى شعر المتنبى وادعى أنه اجتمع به وناقشه فيه ، ذكر ذلك فى رسالته الحائية [٢] ذكر فيها سرقاته والساقط من شعره ، ومما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبى هو أرسطو ، أما ابن جنى فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملازمة للشاعر وقد روى أن شعر أبى الطيب كثير وأن ما فى الديوان هو المتداول فى أيدى الناس من شعره ،وكذلك أبو العلاء المعرى أولع به وشرح شعره .

أما المتأخرون فقد كان من أفضل جمهرتهم فى العناية بالديوان الشيخ ناصيف اليازجى[٣] الذى أسدى إلى المتنبى يداً لا تُنسى فى سجل الزمن ، إذ حل معانيه وضبط شعره وقوافيه بما يوافق روح الشاعر وأدبه .

وكان الأستاذ عباس محمود العقاد — يرحمه الله — سباقاً إلى دراسة المتنبى على المنهج العلمى الحديث فجاء بحثه المنشور فى مطالعاته [٤] جامعاً بين الجدة والدقة فى الاستنباط والتقصى والمقارنة .

كما أن من آثار الدكتور عبد الوهاب عزّام — عليه رحمة الله — كتابين

---

(١) بلاشير فى كتابه عن المتنبى ص ١٩٧ .

(٢) مجلة المشرق البيروتية سنة ١٩٣١ ص ٢٠٥ وكذلك ابن خلكان ج ١ ص ٥١١ .

(٣) طبع بيروت .

(٤) « مطالعات فى الكتب والحياة » طبع مصر سنة ١٩٢٤ .

فى المتنبى واحداً لذكراه وآخر هو شرح ديوانه ، فى الأول[١] أثبت الانطباع الخالد لشعر المتنبى فى نفسه وعرض لسيرته الزاخرة بالأحداث . وقد قدم للقصائد فى شرح الديوان بذكر ظروفها وأحوالها الاجتماعية والسياسية .

هذه القصائد قالها أبو الطيب مثلما ينفح النسيم أو تهب العاصفة . وقد فرغ منها ثم ترك الخلقَ يبحثون فيها فى عهده ومن بعده ويتداولون الرأى والنقد ونام هو عنهم جميعاً بعين طاب لها الرقاد فى ظلال الخلود وهو القائل :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

حتى حار أبو العلاء المعرى فى هذه النبوة التى جاءت من المتنبى يوم نظر هو بشعره بعد موته .

وقد تتبع المستشرق الأستاذ بلاشير أكثر ما ألف فى موضوع المتنبى عند الشرقيين والغربيين ، وعنى المستشرق الإيطالى جابريللى بدراسة المتنبى ، وهو يرى فى شعره ما يأتى :

١ — المتنبى أقرب إلى القدماء منه إلى المحدثين .

٢ — ديوانه صدى المعرفة العميقة بدواوين الجاهليين والإسلاميين والمولدين .

وقد كتب هذا المستشرق دراسة لحياة أبى الطيب[٢] من الوجهة الذاتية لا الموضوعية فاستخلص الأمور الآتية :

١ — امتلأ ديوانه بالمدائح والمراثى وهذا قسم خلقته المنفعة الخاصة .

٢ — أقيم التصنع فى هذا القسم مقام الاختيار وحلت التشبيهات والمجاز محل السمات الخاصة بكل شخصية ، بمعنى أن الحقيقة فى ممدوحيه حسب رأيه بقيت ظلالاً باهتة . وما يزال المستشرقون معنيين كل العناية بدراسة المتنبى وشعره لأنهم يجدون فيه مجال القول ذا سعة وموضوعاً متعدد النواحى يعوزه الشرح والتحليل على المنهج الجديد . كما ترجم له للفرنسية « غوستاف شلومبرجه » فى كتابه العظيم الضخم « ملحمة ينسيفور فوكاس » قصائد حربية رائعة . . .

---

(١) طبع الديوان بمصر وطبع كتاب الذكرى الألفية سنة ١٩٣٦ بمصر .

(٢) جريدة الجمعية الآسيوية الإيطالية بفلورنسا سنة ١٩٢٦ .

٢ ـ ديوانه الحافل

ا ـ المتنبي بين خصومه ومحبيه

كان كلامى على حياة أبى الطيب وسيرته ممزوجاً بنزعات شعره ، فإن أبا الطيب شاعر أرخ حياته وصور حوادثه فى شعره ولم يجمجم ، والذين نسقوا ديوانه حسب أدوار حياته صنعوا الجميل لتاريخ أدبنا أكثر مما صنع العكبرى ، ومن رتب ديوانه على حروف الهجاء مثله ، فكان أن ضاع بذلك على الدارسين والباحثين منهج التسلسل فى حياة الشاعر جرياً على الطريقة السخيفة التى سار عليها الأوائل وبعض الأواخر ، فى جمع دواوين الشعراء ونشرها حسب حروف الهجاء فى القوافى والروىّ، وهذه الطريقة إن دلت على شىء فلا تدل على أكثر من لعبة تصفيف للحروف وإحصاء لعدد الأبيات .

من أعظم قصائد أبى الطيب « سيفياته » التى قالها فى مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب . ويلاحظ المستشرق الأستاذ ريجيس بلاشير فى كتابه الذى وضعه عن المتنبى سنة ١٩٣٥ قبل ذكراه الألفية بعام واحد أن أبا الفرج الأصبهانى لم يذكر أبا الطيب فى كتابه الأغانى لكرهه للشاعر ، وأرى أن إغفال هذا الذكر ربما كان عمداً ، وأن الأصفهانى الذى صنع أغانيه فى خمسين عاماً وقدمه إلى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر ، قد يكون هذا الاعتذار على أنه تلقى الكتاب فى أواخر عمره حين ضاقت يده عن جزالة الإكرام وذلك بعد غلبة البيزنطيين وخيبته قبيل موته ، ومن عجب أن يسكت سيف الدولة عن إهمال أبى الفرج لذكر المتنبى وفى هذا إهمال للأمير نفسه .

ولقد لقى شعر المتنبى تحيزاً فانقسم نقاده فريقين : واحد معه وآخر عليه ، وألفوا الكتب المطولة فى ذلك، وكان أعدلهم القاضى الجرجانى المتوفى سنة ٤٩٢ هـ كان قاضياً فى « الرّى » فوضع فى أبى الطيب كتاباً سماه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » . كما وضع أبو الحسن الإفريقى المعروف بالمتيّم الذى عاش فى عهد نوح بن منصور السامانى فى أواسط القرن الرابع للهجرة كتاباً بأبى الطيب سماه

« الانتصار المنبي عن فضل المتنبي » — ونجد البديعي الحلبي الذى توفى سنة ١٠٧٣ للهجرة قد وضع كتاباً عن الشاعر سماه « الصبح المنبي فى الكشف عن حيثية المتنبي »[١] .

أما العكبرى أبو البقاء فقد شرح ديوان أبي الطيب سنة ٥٩٩ للهجرة وقرأه فى مصر على كبير أشياخها فى عصره محمد بن صالح التيمى النحوى، كما قرأه على أبى الحرم بن رّيان الماكسينى[٢] بالموصل معتمداً على أبى الفتح بن جنى فى شرحه لديوان أبى الطيب ثم على شرح أبى العلاء المعرى وأبى زكريا بن الخطيب واستفاد من شروح أبى على بن فورّجة وأبى الفضل العروضى . وهذان من أهل القرن الرابع للهجرة كما كانت استعانته كبيرة بشرح أبى الحسن الواحدى[٣] المتوفى بعد منتصف القرن الخامس للهجرة .

ب — حساده

إذا شئت أن تعرف لامرئ فضلاً مطويّاً فانظر إليه على ألسنة حساده لأنهم خير ساحة لنشر هذا الفضل . ولم يتصد لشاعر كما تصدى لأبى الطيب من المنتقصين والحاسدين، فهو منذ ظهر شاعراً وخرج إلى البلاد متكسباً وداعياً ابتلى بمن يحقد عليه ويرميه بالسوء والوشاية ، وكان يهون عليه أن يصاب جسمه وتسلم كبرياؤه ورجولته فيتعاظم ولا يبالى كبيراً ولا صغيراً . ولهذا اشترى كثيراً من الخصومة والعداوة بالاستهانة والتحدى ، كما كانت عبقريته فى الشعر وطموحه إلى المجد سبب الأقاويل التى لحقه غبارها ، والمطاعن التى وصمه بها حساده ، فإذا قال الشعر فتشوا عن عيوبه أو كادوا له عند ممدوحيه ، فأوّلوا معنى الشعر بما يؤذيه، ويجعل الممدوح مرتاباً فيه، وإذا راح يطلب حظّاً سبقه الحساد وزاحموه عند ذوى الحكم والأمر ، ووقفوا له بالمرصاد .

---

(١) نشر هذا الكتاب على هامش الطبعة الأولى لشرح ديوان المتنبى للعكبرى .

(٢) نسبة إلى ماكسين بلدة بجهات الجزيرة على الخابور .

(٣) طبعة فريدريك ديتريصى ببرلين سنة ١٨٦١ م .

لقد حسدوه على حياته فى مقامه وترحاله وفى حرمانه وكفاحه ، حتى اغتنى وصار اغترابه فى طلب المعالى لا فى طلب المعاش ، ولكم شكا فى شعره وعبر عن شكواه بأبيات كثيرة ولأسباب متعددة ، وكان أشد ما أصابه من هذا الحسد حين أقبلت عليه الدنيا فى حضرة سيف الدولة ، وفى مجالس الأمراء والحكام الذين استهواهم بشعره ودعوته ، حتى أعلن لسيف الدولة ما لقى من كيد الشعراء والمزاحمين طالباً أن يضغط عليهم :

أزلْ حسدَ الحُساد عنى بكبتهم فأنتَ الذى صيرتهم لى حسّدا

وما تغاضى يوماً عن طاعن أو حاقد ، بل كان يزيده غيظاً ونقمة بما يذيع من التشنيع عليه والتعاظم ، فأكثر من ذكر الحسد بشعره ولم تخل أكثر قصائده من شكوى الحساد حتى سمى ابنه محسّداً ، إغاظة لحساده ، فأهاجهم وأثار حقدهم بقصائده ولم يتورعوا عن اتهامه بأبشع التهم ومنها سرقة الشعر والتعالى على السلطان فشغل البال وملأ المجالس بذكره وخبره ، ولم يستطع أحد منهم أن يطعنه فى خلقه وعرضه .

وكان الشاعران الخالديان فى جملة حساده .

ومن طريف ما يروى عن هذا الحسد وتعريض المتنبى بصاحبيه أن المتنبى أنشد يوماً سيف الدولة قصيدة من قصائده وفيها هذا البيت :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

وكان المتنبى يقصد التعريض بالخالديين . وسبب التعريض الواقعة الآتية :

قيل إن الخالديين قالا لسيف الدولة إنك لتغالى فى شعر المتنبى ؛ اقترح علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجود منها ، فدافعهما زماناً ، ثم كررا عليه فأعطاهما هذه القصيدة ، فلما أخذاها قال أحدهما للآخر ما هذه من قصائده الطنانات فلم اختارها من دون سائر شعره ؟ ثم عادا ينظران فيها حتى انتهيا إلى هذا البيت ، ففطنا لمراد سيف الدولة ولم يعاوداه بذكر المتنبى ولم يعملا شيئاً .

ولم يسلم أبو الطيب مع ذلك من كيد الحساد وحقدهم لكنهم جميعاً كانوا دونه شعراً وقدراً فى نظر النقاد والأشياع ؛ فنشأ له من جراء ذلك أعداء أعادوا إلى

الأذهان ما كان يقوله شعراء الهجاء فى القرن الأول للهجرة ، وحين هاج شعراء بغداد على أبى الطيب بتحريض المهلبى الوزير البويهى [١] لترفع أبى الطيب عن مدحه ، وكان من خصومه ، ومعهم أبو الفرج الأصفهانى ؛ فكان من قوله فيمن تقدمهم وهو عند سيف الدولة[٢] :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيفٌ يقاوينى قصيرٌ يطاولُ [٣]

وقيل له فى ذلك فقال لقد فرغت من الرد عليهم حين قلت فى طبقة هى أعلى منهم فى الشعر :

أرى المتشاعرينَ غرُوا بـــذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مــرٍّ مريض يجد مرًّا بـــه المـــاء الزلالا[٤]

ومن أولئك الشعراء الذين ذموا المتنبى ببغداد ابن سكرة وابن لنكك وابن الحجاج ، لا يذكرهم الناس اليوم إلا لماماً وقد عفى الزمان على أخبار أكثرهم ، بل يذكرون المتنبى فى كل حين وسانحة ، ولو تسامحنا وقلنا عاش مع أبى الطيب شعراء كانوا كواكب أيامهم ،لقلنا إنه طلع بينهم شمساً وصدق فيه قول الشاعر الذبيانى الذى خص به النعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

---

(١) « معلمة الإسلام » الترجمة العربية بمقال لبلاشير ص ٣٦٩ .

(٢) قال العكبرى عند شرح هذا البيت والذى يليه (هذا إشارة إلى الذين كانوا ينازعونه الشعر عند سيف الدولة) ج ٣ ص ١١٧ طبعة البابى بمصر .

(٣) الضبن ما تحت الإبط إلى الخاصرة . أى شاعر أضعه تحت إبطى لضآلة حاله ومقاله . يقاوينى : يباريني بالقوة .

(٤) « اليتيمة » الجزء الأول ص ٨٥ .

٣ ـ تأثره وتأثيره

١ ـ ثقافته

تلقى المتنبي ثقافته الأولى فى « كتّاب » بالكوفة كان يدخله أولاد الأعيان من الكوفيين فتعلم العربية لغةً وإعراباً وشعراً، ثم ارتحل فى مستهل شبابه إلى البادية حيث صاحب الأعراب ولابسهم وأخذ عن شيوخهم كثيراً من أوابد اللغة وشواردها ـ كما قدمت ـ ورجع إلى الكوفة بعد سنين شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها، وتنقل من بادية العراق إلى بادية الشام ، ومن البدو إلى الحضر ، ومن المدَر إلى الوبر متردداً بين القبائل ومخايل العبقرية مبشرة بخير منه كثير [1] ، وكان الفضل بذلك لأبيه الذى لازمه فى هذه الأسفار الأولى ، ولما اشتد ساعده قرأ على أكابر العلماء فى عصره منهم الزجاج أبو إسحق ، والسرّاج أبو بكر كما قرأ على نفطويه وابن درستويه ، ولزم أبا بكر محمد بن دريد وقرأ عليه، ولم يترك كبيراً من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه .

وقد لازم الورّاقين [2] واتخذ كراريس يودعها شعره وخواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر النوابغ : أبى تمام والبحترى وبشار وأبى نواس ، وكانت هذه الكراريس عدته وزاده فى تجواله ورحيله ، ولقد بقى أثر البادية عميقاً فى حياته مطبوعاً فى ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من هذا الأثر حتى بعد انتقاله إلى الحضر، فكانت لغة البادية فى معانيه وقوافيه، يهيج فؤاده بالأعرابيات ويترنم بالوفاء والفداء ويعبد البطولة ، ويتغنى بالرماح والسيوف ومحمحات الخيل وهدير الفحول .

لكن المتنبي الذى تناهت إليه ثقافة البادية والتطواف لم يقتصر عليها وما وقف دونها، بل خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ـ كما قال القاضى الجرجانى ـ وراح يقرأ الفلسفة والمنطق ولا شك فى استفادته من فلسفة الفارابى الذى كان

---

(١) اليتيمة ، ج ١ ص ٧٩ .

(٢) الوراقين : باعة الكتب .

معروفاً بحلب فى مقامه عند سيف الدولة ، وله مقولات وآراء فى قضية الشعر وعلاقته بالموسيقى ، كما تأثر بمقولات أرسطو وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعانى فيه والمرامى ، ودخلت شعره ألفاظ الصوفية والحكمة واستفاضت فيه خطرات نفسية وروحية دلت على استساغة ما تلقى من ثقافة حضرية تمازجت بالأولى . أما مدرسته الكبرى التى عبّ منها حتى ارتوى وبقى فيها حتى انتهى ، فهى الحياة نفسها بتجاربها ومقاليدها ، بشقائها ونعيمها ، فاكتمل شعره وظهرت خصائص هذا الشعر فى تفكيره وشعوره غير منسلخة من أثر البادية ولا خالية من دواعى القلق والاضطراب فاستطاع أن يجمع بين ثقافتين ويفيد من حياة البدو ومعرفة الحضر .

وكان شعره مشابهاً — فى مصطلح عصرنا — لجريدة كبرى أو دار نشر ، فعظم خطره عند خصومه وأحبائه. وبلغ من تأثير هذا الشاعر بشعره أن خافه الملوك وطمعوا بمدحه . وقد أثر إلى ذلك فى مجرى السياسة فى عصره وأخبارها فأسبغ المديح والثناء على رجال ، وكال الهجاء والطعن لآخرين ، فجعل التاريخ فى عهده يساق بحُداء هذا الهجو وذاك المديح لترسم صوره على الحق دون تزوير أو تزييف .

كما أثر فى الشعراء الذين أتوا بعده فهم عالة على قصيده لا يريمون عنها حتى تدركهم التخم وقد يتسللون إلى ديوان أبى الطيب كلما عصّهم القرائح وتمردت المعانى فراحوا يقتنصون أروع ما عنده من القوافى والخواطر ، ولهؤلاء قصائد لو حُملت كلماتها ومعانيها مغناطيسية الرجوع إلى قواعدها عند المتنبى ، لما بقى لهم منها سوى الأوزان الجافية مثل سمكة ذهب لحمها وبقى شوكها .

ب — تأثيره فى أبى العلاء وشوقى

أثر شعر المتنبى — من حيث هو فن — فى الشعر العربى بعصره وفيمن أتى بعده ، فبعث فى الشعراء همة إلى رفع شعرهم نحو طبقته ، لأن من عادة أهل الأدب الاقتداء والاتباع والمنافسة ، فأبو فراس الحمدانى وأكثر الشعراء الحمدانيين

الذين ذكرهم الثعالبي كانوا ينسحبون على آثار أبي الطيب . وهم الذين حسدوه وتتبعوا أخطاءه .

وأما الذين أتوا بعده وتأثروا به فهم كثير ، لو تجرد مؤلف لجاء لهم بكتاب كبير فيهم ، على أني أكتفي بشاعرين عظيمين عاشا في ظلال أبي الطيب أو في تنسم وحيه ، وكان له في كل منهما أثر عميق عاش معه عمره . وقد يختلف القول في أحدهما عن الآخر .

أولهما أبو العلاء المعري الذي أقبل على شعر أبي الطيب إقبالا ما عرف من شاعر آخر مثله فتأثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضاً ، فأبيات أبي الطيب التي يقول فيها :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

نرى لها صوراً أشتاتاً في اللزوميات لا تكاد تحصى ، وترجع هذه الأشباه عند أبي العلاء بروحها إلى المتنبي . وحين يغرقنا أبو العلاء بفلسفته الوعظية وزهده في الحياة وذمه للمرأة وتبيانه لألاعيبها النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع ويدعونا إلى ترك النسل لتعطيل العالم نجد أستاذه أبا الطيب يقول باختصار :

هل الولد المحبوب إلا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وأما فلسفة الموت والحياة التي عج بها شعر أبي العلاء عجيجاً فإننا نجدها كلها صدى لهذا البيت عند أبي الطيب :

أنبكي لموتانا على غير رغبة تفوت من الدنيا ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وأهله تيقنت أن الموت ضرب من القتل[1]

أو قوله :

يكفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

---

(١) وفي رواية : « إذا ما تأملت الزمان وصرفه » .

وقد تقدم قولى عن مظاهر هذا التأثير فى شرح المعرى لديوان المتنبي ، وقد سمّى ذلك الأثر « بمعجز أحمد » .

والشاعر الثانى هو أحمد شوقى شاعر العربية فى القرن العشرين الميلادى . لقد أولع بشعر أبى الطيب فقلده فى سبكه وتعبيره والتزم فى أكثر قصائده أوزان المتنبي وقوافيه وروَيها ، ولكن شوقيًّا لم يكن يصنع هذا لنفسه تعلقاً بأبى الطيب فحسب بل اعتقاداً منه بأنه لا يقل عنه شأناً . فهو مطبوع على الشعر متمكن من العربية ، فلماذا لا يقدم روائع كالتى أتى بها أبو الطيب يضاهيها بتلك المحاكاة وربما كان فيها الإبداع .

كان تأثر شوقى الذى جاء بعده بعدة عصور أقوى من تأثُّره بشعراء الغرب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فى بلادهم ، فتجلت طوابع المتنبي فى كثير من شعر شوقى . وقد حاكاه فى بعض معانيه وألفاظه ، ورثى جدته « تمراز » بقصيدة عارض فيها ميمية أبى الطيب التى رثى فيها جدته .

٤ ـ المتنبي شاعر عالمى

بمنزلته فى الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبي فى أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى إليها وتبحبح فيها بقوة واقتدار متعاظماً ومرغوباً فيه ، ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية ، وليس للحظ دَخلٌ فى ذلك ، فإن حساب الحظ يسقط فى القيم الأدبية الخالدة ، ويكاد يكون كتابى هذا بجملته بياناً لمنزلة الشاعر فى أدب العرب . وقد تقدم الكلام على ديوانه وشراحه ، ومن كتب عنه من الأقدمين والمعاصرين . وكفى برأى الجرجانى قاضى الرّىّ بل قاضى الأدب أن تناول الشاعر بما هو أهل له فى كتابه « الوساطة » [1] حتى خلص إلى أن المتنبي هو الشاعر المتفوق وأن حملة النقد الكبرى التى حُملتْ عليه كانت لنوازع المنافسة والحسد [2] أكثر مما كانت

---

(١) « الوساطة بين المتنبى وخصومه » مطبعة العرفان صيدا، سنة ١٩١٣ .

(٢) انظر الصفحات من ٣٠٠ – ٣٣٠ من الوساطة .

لغاية النقد والأدب .وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه إليه راضية ، ومرت منزلة الشاعر عبر العصور فإذا تناولها الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٥٣هـ لم يسئ إلى شاعريته فيها وإن تبسط بذكر شوائبه ، وجاء ابن خلكان سنة ٦٨١ للهجرة فترجم للمتنبي فى كتابه المشهور « وَفَيات الأعيان » وكان قاضياً عادلاً كالجرجانى فوضع الشاعر فى أرفع منزلة من الأدب العربى ، ثم قفّى على آثاره البديعى فى القرن الحادى عشر للهجرة فأطال البحث فى قيمة المتنبي فى الشعر والحياة بكتابه « الصبح المنبي » .

وناهيك بما لقى المتنبي من عناية المعاصرين بما تقدم ذكره [1] وخاصة فى إقامة الحفول الأدبية الدراسية لشعره وأدبه فى ذكرى عيده الألفى سنة ١٩٣٦ فى العواصم العربية وباريس ، وأهمها مهرجان دمشق الذى دام أسبوعاً فى جامعة دمشق وباسم المجمع العلمى العربى .

أما منزلة المتنبي فى أدب الغرب فقد احتلها رفيعة مرموقة إذ أن الأدب العالمى يزن الشعراء والأدباء وأهل الفن بميزان المعانى الإنسانية ويطالب فى أن يسمعَ الشاعرُ الناسَ أصداء نفسه وروحه وأن يعطيهم صورته الصادقة فى الألم والحب والفرحة والبغضاء ، وأن يكون شيئاً ماحوظاً فى تاريخ البشر بآثاره الخالدة ، ونفاذاً بنظرته وراء الوجود ، وكل هذا وجده الغربيون فى شعر المتنبي . فكان من السباقين إلى التعريف بأبى الطيب فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين الأستاذ المستشرق القديم « غوستاف شلومبرجه »[2] الذى ترجم للمتنبي بمواضع كثيرة من كتبه وعرّف به وبشعره ، وبفروسيته وحروبه للبيزنطيين ، والمؤرخ الروسى إسكندر ڤازيلييف . وهو من السباقين أيضاً فى الغرب

---

(١) لعل أقدم نسخة مطبوعة فى ديار العرب لديوان المتنبي هى التى وقف عليها المعلم بطرس البستانى ببيروت سنة ١٨٦٠ للميلاد بالمطبعة السورية ثم كانت نسخة الديوان التى طبعها اليازجى فى المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣٠٥ هـ من أتم ماينبغى لشعر المتنبي فى عصرنا .

(٢) G. Schlumberger: un Empereur Byzantin au Xe siècle "Nicephor Phocace" طبع معهد باريس سنة ١٩٢٣ م .

إلى التعريف بالمتنبي .

ثم مضى على أثرهما أستاذان كبيران أحدهما الأستاذ المستشرق ماريوس كانار فوقف جزءاً كبيراً من آثاره الأدبية في فرنسا والجزائر على أبي الطيب المتنبي والحمدانيين ، والثاني الأستاذ المستشرق ريجيس بلاشير الذي ترجم في كتابه الذي ألفه عن أبي الطيب قسماً كبيراً من شعره للغة الفرنسية .

وقد قدم هؤلاء وغيرهم من المستشرقين الألمان والروس والهولانديين والإيتاليين أبا الطيب للعالم الغربي وللأدب العالمي فرأوه شاعراً للعربية من طراز أعلى يعلم شعره المجد والمروءة والأخلاق ويبعث في النفس روح الحماسة والبطولة ، وهم جميعاً عدّوا أبا الطيب (شاعراً عالميًّا) لا يقل قيمة عن شعراء الأدب الأوربي العالميين الذين ترك كل منهم حدثاً رائعاً في أدب أمته .

وقد عنى غير هؤلاء بالمتنبي طائفة من المستشرقين درس كل منهم ناحية خاصة من نواحيه في الأدب والفلسفة ، فعنى المستشرق لويس ماسينيون بناحية غريبة في شعر أبي الطيب فعزا ما عنده من صلابة الأسر وتوقد الحماسة والميل إلى الحرب [1] إلى نزعة (قرمطية) سماها النزعة إلى سفك الدم ، وهذا مذهب ارتآه الأستاذ ماسينيون حين وجد القرامطة يدهمون الأمصار في عصر أبي الطيب ، وقد جاءوا البصرة والكوفة وأعملوا فيها النهب والفساد .

والذي أجده أن ميل أبي الطيب إلى الحرب كان نزعة عربية حرة في عصر عانى فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك ، فكان أبو الطيب صاحب رسالة حربية في تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم بردهم إلى مثلهم العليا السابقة . ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربي حر كالمتنبي وإن تاريخ نضاله ورحلاته ، ومحتوى ديوانه . يدلان أوضح دلالة على هذه الخطة التي ما حاد عنها حتى مات ، وليس ما يسوغ تفسير النزعة العربية الواضحة الصريحة عند أبي الطيب بنزعة قرمطية دموية مرادها السفك والتقتيل ، وقد رأى رأي المستشرق

---

(١) Massignon: Mutanabbi devant le siècle Ismaëlien de l'Islam mémoire de l'Institut Français de Damas — Beyrouth 1936.

ماسينيون كل من الدكتور طه حسين [١] والدكتور شوقى ضيف [٢] .

فهل تكون دعوة من نافح عن بلاده فى ذلك الحين وقد تحكم بها الأجنبي إذا حمل السلاح ودعا للتحرير والكفاح نزعة قرمطية ، لأنها تهدد بسفك الدم ؟ أو إذا قام فى عصرنا داعية ثائر لتخليص بلاد العرب من سلطان الأجنبي والمستعمر والصهيونية الغاصبة فأخذ بالشعر ليبعث الحمية والنخوة فى العرب يكون قرمطياً ؟ إن الوضع لم يختلف فى عصر المتنبي عما فى عصرنا ، ولئن كان من حظ القرن الرابع أن وجد فيه شاعر كالمتنبي ينهض بتلك الرسالة فمن لنا فى عصرنا بشاعر؟ وشعراؤنا بين معتزل أو متغزل، أولاء بمطامع الدنيا أو ماض مع النزعة الجديدة الخاسرة فى تهديم الشعر القديم القويم .

وقد عنى بالمتنبي عدا أولئك المستشرقين أنداد معاصرون فيهم : كارل بروكلمان[٣] ، وكارا دو فو [٤] ، كما كتب المستشرق الإيتالى غابريللى [٥] عن حياة المتنبي التى عرضها فى معرض التحليل ووجد صاحبها شاعراً يرتفع إلى مصاف شعراء الغرب الخالدين ، وقد مارس هذا المستشرق دراسته لأبى الطيب خلال الأعوام ١٩٢٧ — ١٩٢٩ و ١٩٣٦ ويستخلص من هذا الفصل أن المتنبي بما ترك من شعر ودوىّ ، يعد من مفاخر الأمة العربية وأنه لا يقل قدراً ومنزلة عن أعاظم الشعراء والعباقرة فى أمم الشرق والغرب . . .

---

(١) راجع « مع المتنبي » للدكتور طه حسين .

(٢) راجع « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » للدكتور شوقى ضيف الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ — ص ٢٠٣ .

(٣) « تاريخ الأدب العربى » بالألمانية .

(٤) راجع كتابه « مفكرو الإسلام »

Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam. Paris 1921.

(٥) طبعت هذه الدراسة سنة ١٩٠٩ فى مدينة « سان بطرسبرج » .